**الاستقرار والتطور**

حين تكون الحياة مستقرة، يكون بإمكان التقاليد والقيم الراسخة في الثقافة الشعبية والتعاليم الدينية أن تؤثر في الأوضاع المعيشية وتسهم في تطويرها وتحديد مسارها؛ إلا أن كل تطور تحدثه تلك القوى يكون في المكان وليس في الزمان، أي في تأويل فكرها وقيمها القديمة وليس في تجاوز ذاتها وخلق مجتمع جديد بقيم ونظم حياتية غير تقليدية تتعايش مع عصرها. في المقابل، حين تمر ظروف الحياة بمرحلة تحول وتغير ديناميكية مُربكة كما هو الحال اليوم في معظم دول العالم، فإن الظروف المعيشية تقوم بالتأثير في التقاليد والقيم والمعتقدات الدينية والأيديولوجية، واجبارها على التكيف مع الأوضاع المتغيرة. ولما كان عصر المعرفة يتصف بالتغير والتحول الدائم، فإن ظروف الحياة المتغيرة من المؤكد أن تستمر في تشكيل وإعادة تشكيل التقاليد والقيم وأنماط الحياة والأفكار والمواقف من دون توقف. الأمر الذي يعني ان القيم المطلقة والفلسفات الشمولية والعقائدية لن يكون بإمكانها الحفاظ على بنيتها الفكرية والقيام بأداء دورها التقليدي في أي مجتمع في المستقبل. لكن كون الفلسفات الشمولية والتنظيمات الإيديولوجية والعقائد الدينية تقوم على قيم مطلقة وحقائق ثابتة، فإن من الصعب عليها أن تتطور وتقبل التغير المفروض عليها من دون مقاومة شرسة. وهذا يعني أن التحول المطلوب في المجتمعات التي تهيمن عليها نظم حكم عقائدية وإيديولوجية سيكون صعبا وغير مضمون النتائج.

في ضوء الفهم هذا لظروف حياة العصر ودينامكيتها، يمكن الجزم بأن قدرات الحكام الأيديولوجيين وسطوتهم سوف يتم تقويضها عاجلا وليس آجلا. الأمر الذي يعني أنه من غير المتوقع أن يستمر هؤلاء في ممارسة الاستبداد والبقاء في الحكم طويلا. مع ذلك، من المتوقع أن تكون طريق الوصول إلى هذه النقطة صعبة ومحفوفة بالمخاطر؛ فالتطرف الديني ومعاداة العولمة في المشرق، والتوجه نحو رفض اللاجئين في بلاد الغرب تشير إلى أن استعادة السلم الاجتماعي على المستوى الوطني، وتوازن القوى على المستوى الدولي سيكون صعبا ومكلفا. وهذا من شأنه أن يطيل أمد الفوضى والصراع في عالم اليوم، فيما يجعل الفقراء والضعفاء، خاصة في الدول النامية، ضحايا صراع دول كبرى طامعة ونخب جشعة لا تحترم حقا، ولا تعير أهمية لحياة فقير أو ضعيف.

من ناحية ثانية، كل تغير بالنسبة لكل إنسان يعيش حياة مستقرة يكون صعبا، لأن الإنسان بطبيعته يسعى إلى الاستقرار والطمأنية، ويحاول أن يتجنب المفاجآت بقدر الإمكان، ويخاف من المجهول. لذلك كي لا يستمر الإنسان المستقر والقنوع في مقاومة التغير لا بد من قيام القوى الاجتماعية التي تقود عمليات التغير والتحول بإقناعه بأهمية التغير وضرورته بالنسبة لحياته ومستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده من بعده. وهذا لا يتمّ إلا بتنمية الوعي أولاً من خلال التربية في البيت والتعليم المنظم في المدارس والجامعات والمعاهد العلمية والفنية، والتثقيف المفتوح الذي تقوم به وسائل الإعلام والنوادي الثقافية والحياة العملية وأماكن العبادة. وتشمل عمليات التوعية إيضاح أهمية التغيير وما يحمله من وعود تثري حياة الفرد والمجتمع وتضمن مستقبلاً أفضل لأعضائه، وما تتطلبه تلك العمليات من تحولات اجتماعية وثقافية واسعة. لكن نجاح هذه الجهود يحتاج لتنسيق دولي، وتعاون الدول الكبرى والشركات الكبرى، وتنازل الأثرياء عن جزء من أطماعهم التي لا تعرف حدودا تقف عندها.

وفي الواقع، يقع الجزء الأكبر من عبء التوعية على نظام التعليم لكونه أهم المؤسسات التي تقوم بإنتاج المعارف العلمية والأفكار الخلّاقة ونشرها في المجتمع، ونقد التقاليد والعادات والقيم المتوارثة وتطويرها. لكن علينا أن ندرك أنه ليس بالإمكان حدوث تغير نوعي في مجتمع مستقر من دون طرح أفكار جديدة وتقاليد وقيم تتعايش مع العصر وحقائقه العلمية، وتشييد مؤسسات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية قادرة على إدارة المجتمع واستيعاب ما يعيشه العالم من حولها من تغيرات، وتطوير طرق التفكير بالكيفية التي تجعلها تعتمد العقلَ والعلم والمنطق والتجربة الإنسانية مراجع أساسية لها، تنطلق منها وتـنتهي إليها.

إن إلقاء نظرة سريعة على طرق حياتنا وظروف معيشتنا كعرب، وحال مؤسساتنا التربوية والتعليمية، وما نتمتع به من حرية وأمن تكشف مدى تخلفنا عن العصر وحقائقه في كافة ميادين الحياة، العلمية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية. وهذا فرض علينا أن نسير صاغرين خلف دول لا تحترم عقولنا التي أهملناها طويلا، ولا تعترف بحقوقنا التي تنازلنا عنها طواعية، ولا تعير اهتماماً يُذكر لإنسانيتنا التي طمرناها تحت رمال صحراء فكرية قاحلة ومهاترات مذهبية عدمية. إن المهاترات المذهبية والحروب الطائفية تهدم ولا تبني، تقتل ولا تُحيي، تكبت الحريات بدلا من أن تطلق لها التعنان كي تحلق في سماء الإبداع، تغلق العقول بدلا من أن تفتحها؛ فالعقول المغلقة لا يمكن لها أن تفكر بعلمية وتُبدع.

وفي ضوء الحقائق هذه أصبح من واجبنا ومن مصلحتنا أيضا أن نستخدم عقولنا وأن نقوم بتطوير أفكارنا ومؤسساتنا وثقافتنا كي نحرر أنفسنا من قوى الاستعمار الخارجية وقوى الكتب الداخلية، العسكرية منها والعقائدية. ودون ذلك لن يكون بإمكاننا أن نتجاوز حواجز التخلف، أو أن نخرج من دهاليز الظلم والظلام التي تحاصرنا إلى فضاءات الحرية والنور. كما انه لن يكون بإمكاننا تحقيق الاستقرار والطمأنينة في بلادنا، ففجوتي الثروة والدخل ما تزال تتسع، وأعداد الفقراء ما تزال تتزايد، والردة الثقافية والدينية ما تزال تتنامى وتُعمق جذورها في الأرض وفي الوجدان الثقافي للشعوب عامة، والجهلة منهم خاصة.

إن ما يجري اليوم في أوكرانيا يعطينا فكرة جيدة عن التحديات التي تواجه النظام الدولي المتهالك، وحالة الفوضى التي تعم مختلف دول العالم في غياب فكر جديد وقيادات جديدة تحمل رؤى إنسانية. وفي المقابل، نلاحظ تمادي عمليات الكذب وتزييف الوعي باستخدام إعلام عالمي لم يكن يوما محايدا أو أمينا على الحقيقة. وهذا يتسبب في تعثر جهود المصلحين، وتنامي الفوضى والأزمات التي تسود عالم اليوم، ويحصر الاهتمام في المصالح الخاصة، وكأن كل شيء سيعود إلى سابق عهده دون جهد بعد أيام أو أشهر، وهذا من شأنه أن يجعل التحديات أكثر صعوبة، خاصة بالنسبة الشعوب الفقيرة و المغلوبة على أمرها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع www.yazour.com